المغرب أفقا للفكر*

عبد الكبير الخطيبي

ترجمة أدونيس

تمهيد :

لا يمكن للهوية الأصلية (التي تقوم على الأصول اللغوية والدينية والأبوية) أن تحدد وحدها العالم العربي. فهذه الهوية قد تصدعت وتمزقت بفعل الصراعات والتناقضات الداخلية. ثم تجد نفسها مرغمة على التكيف مع مقتضيات الحياة العصرية والتفتح على العالم.

وهذا التفتح، الذي لم يسبق له مثيل، يستمد قوته من سيادة العقلانية العلمية. وهو يتم في عالم يطبعه الصراع والتناقض. وفي مواجهة بين مختلف النماذج الإستراتيجية السياسية والاقتصادية والإيديولوجية والثقافية.

ان العالم العربي قد اهتز في نظامه وتصدع في كيانه الحضاري، فأصبح يعاني من تعددية شاملة، تتجلى في جميع أشكال المثاقفة والاضمحلال. وليس هذا المسلسل في حد ذاته خيرا ولاشرا. انه مسلسل تاريخي ينبغي أن نقوم بتحليله وتطعيمه عن طريق فكر قادر على تحليل الأوضاع المتعددة التي يجتازها العالم العربي.

فالعالم العربي إذن تعدد. وهو لايشكل – ولايمكن أن يشكل في حد ذاته- وحدة أو كلا متماسكا بإمكاننا أن نحصره داخل منظومة واحدة.

لذا فأنا أدعو الى نقد مزدوج : ينصب علينا كما ينصب على الغرب، ويأخذ طريقه بيننا وبينه، فيرمي إلى تفكيك مفهوم الوحدة التي تثقل كاهلنا والكلية التي تجثم علينا، وهو يهدف إلى تقويض اللاهوت والقضاء على الإيديولوجية التي تقول بالأصل والوحدة المطلقة.

ويبدو لي أن مثل هذا السبيل هو الكفيل بأن يدعم إستراتيجيتنا : فيمكن البلدان التي تخضع لسيطرة الغرب – مهما كان شكل تلك السيطرة- من أن تدرك إدراكا أحسن أسس الهيمنة الغربية، وتتخذ طريقها – بعيدا عن كل أصل ووحدة وهمية – نحو سؤال لم يسبق له مثيل.

تسير أبحاثي بخطى وئيدة في هدا الاتجاه. لذا فإنني انفصل بوضوح عن أشكال الخطاب الثلاثة التي تسود العالم العربي (التراثية والسلفية والعقلانية). فما الداعي إلى هذا النقد الجذري؟ ذلك أن التراثية (إصلاحية كانت أم مطلقة) تسعى إلى بلورة الوجود العربي في سؤال ديني لاهوتي في أساسه. أما السلفية فهي محاولة وهمية للتوفيق بين الدين والعلم حسب مشروع تاريخي يرمي إلى تحقيق إصلاحات أصبحت متجاوزة. وأخيرا فان العقلانية، التي تعلي من شأن العلم، تنسى، بفعل ذلك، المسألة الأساسية للاشعور.

كما أنني أتجاوز النزعة التاريخية التي تفسر جميع المسائل عن طريق الأحداث التاريخية وترجعها الى بنيات تلك الأحداث. لقد كتب على العرب يعتنقوا النزعة التاريخية. وكان عليهم أن يعللوا انحطاطهم وتوسع الغرب باللجوء الى قوانين التاريخ. ان النزعة التاريخية مرحلة ضرورية اقترنت بفترة الدعوة الى الوحدة القومية المطلقة، واسترجاع الشعوب العربية لكياناتها وبلدانها.

الا أن تاريخ الفكر ذاته قد جاوز هذه النزعة فلم يعد لها من مسوغ. وعلينا أن نفسح المجال لفكر يتخلى عن الذاتية الحمقاء ليتمسك بالاختلاف:

- الاختلاف الاجتماعي : بحيث يرمي الفكر الى تقويض البناء النظري الذي يقوم عليه التفاوت

(*) عبد الكبير الخطيبي النقد المزدوج ترجمة : أدونيس، عبد السلام بن عبد العالي، زبيدة بورحيل، محمد برادة ص 9 - 25 - دار العودة بيروت

الاجتماعي وأسسه الأخلاقية.
- **الاختلاف الثقافي :** فيسعى الفكر الى تقويم الثقافات التي نبذها العالم العربي وهجرها.
- **الاختلاف السياسي :** فيعيد الفكر النظر في دعائم التغير وأسس الانفصال حسب ما استجد من تدرج بين مختلف السلطات المحلية ومن تعقد في الوضعية الدولية.
- اختلاف الوجود العربي، لا من حيث هو وجود تغلفه ايديولوجية الكلية والوحدة. بل على انه وجود يتجاوز التراثية والسلفية آخذا بعين الاعتبار مسألة العلم والتقنية.
وليس الاختلاف بين هذه الاختلافات ولا الفرق بين هذه الفروق نتيجة لجمعها. وانما هو حركة نقد مزدوج دائم.

المغرب، أفقا للفكر

1 - في التراث :
كثيرا ما تفلت مسالة المغرب من هؤلاء الذين يسكنون فيه. فجذور الانسان الطوبوغرافية لاتمنح كعطية بالولادة للذين يقيمون في الأرض التي ولدوا فيها. أسير على هذه الأرض وتضيء نظري شمس هذه البلاد، وأحيي وأنا سائر وجوه البشر، لكن ماذا تعني هذه الفقرة في مطلع هذا النص؟
لهذا ننفصل رأسا عن معنى « التراث» الشائع، صحيح أن التراث هو، بالنسبة الى الفكر، راحة الموتى، أرضيين وعليين. وتنبع هذه الراحة من الأرض، من ماضي الأرض، في قلب الذاكرة. تؤسس هذه الدعوة في ذاتها ملجأ التراث، فالتراث (الذاكرة، الأرض، اللغة) لا يضيء الإنسان الا بمقدار ما يستحق موته، بين الموتى.
لهذا ننفصل رأسا عن معنى « التراث» الشائع، صحيح أن التراث هو عودة المنسي. ولابد لهذه العودة من أن نستوقفها ونطرح عليها الأسئلة لكي تدلنا على طريق الموتى الذين يتكلمون، الذين يتحدثون معنا. بماذا ينطق التراث – كل تراث؟ انه ينطق باقامة الالهي في قلوب البشر وعقولهم، وقد احتضنت الميتافيزيقا هذه الاقامة منذ نشأة الفكر، فالميتافيزيقا هي، بمعنى ما، سماء التراث الروحية. ان أداة التصدير «ميتا» (فيما وراء) تجمع بين مصير البشر ومصير الآلهة، بين الأرض والسماء من أجل عودة الموتى الذين يتكلمون. غير أن كلام الموتى، في هذه العودة، شديد البأس دائما على فكرنا: فلسنا اطلاقا متأهبين كما ينبغي لكي نجابه هولهم.

2 - في الاختلاف الوحشي :
أطلق فرانز فانون قبيل موته هذا النداء : « هيا، أيها الرفقاء، لقد انتهت اللعبة الأوروبية، ولابد من البحث عن شيء آخر» التخلي عن أوروبا، والابتعاد عنها الى الأبد؟ أليس هذا وهما، مادامت أوروبا تقيم في كياننا؟ زد على ذلك أن الكائن العربي هو، في مشكلته القصوى، كما نعتقد، غرب صعب المواجهة أكثر من أي وقت مضى – في اختلافه.
اذا كان الغرب فينا، لا كشيء خارجي مطلق، بل كاختلاف نقارنه بدقة مع اختلاف آخر يدعونا هو نفسه الى التفكير فيه كما هو في رهان الفروقات (فروقات الوجود)، إذا لم يعد الغرب اذن وهم تبلبلنا الخاص، فان كل شيء يبقى آنذاك للتأمل – حتى الموت.
لنسم «الاختلاف الوحشي» بالانفصال الزائف الذي يقذف بالآخر في خارج مطلق. الاختلاف الوحشي يؤدي بشكل حتمي إلى ضلال الهويات المجنونة: الثقافوية، التاريخوية، القومية، التزمتية الوطنية، العرقية... كانت هذه الدعوة إلى الاختلاف الوحشي (الوحشي والساذج) السخط الذي لم نتأمله، في مرحلة زوال الاستعمار، ويظل نقدها الغرب أسير العداوة وأسير هيغلية منحطة. وما نزال نتساءل : ما الغرب المعني؟ ما الغرب الذي نعارضه بنا، فينا نحن؟ ومن نحن؟

3 - في الهامش :
إن فكر « النحن » الذي نتجه إليه لم يعد يتموضع أو يبدل موضعه في الميتافيزيقا، بل على هامشها. وهو هامش يقظ. « نحن » ، هذا التفريق غير المقول، غير المدروس، فيما وراء الآخرية الطغيانية والهويات العمياء. إن فكر، هذا « النحن » هو هذا التقييد التاريخي الذي ينسج الكائن – والذي ينسجه الكائن- على هامش الميتافيزيقا. لانقدر أن نستحق موتنا بغير أن نقلق الميتافيزيقا. هذا الإقلاق هو الذي يرجرج علاقتنا بالتراث.
ليس حديثنا تراثيا لأنه يمجد التراث، لكنه ليس منفصلا عن الوقت الراهن بشكل يكفي لكي نفهم قليلا جدا تراجع العرب (التاريخي) وانحدارهم كحضارة شاملة. لقد سقطت هذه الحضارة الشاملة، بشكل ساطع، بدءا من القرن الرابع عشر. ماذا حدث؟ لابد من استئناف الحوار مع سر هذا التراجع وهذا

الانحـــدار نحو الغـــرب. كيف نضطلع بهـــذا التراجع وندرســـه، بشكل دقيق؟ ما شأن هذا التراجع في إقلاق الميتافيزيقا؟

4 - في السيادة :

ومن جهة، فان الغرب، سائر (منذ عصور) نحو هيمنة شـــاملة. وقد أسس هيجل هذا السر في مملكة المعرفة المطلقـــة. يمكن القول أن فكر هيجـــل يعبر عالم نظره الثاقب، كسر أسطوري.

تعنـــي هـــذه الاســـتعارة، مثلا، أن مســـألة الســـيادة (الاســـتعمار، الامبرياليـــة، الســـيطرة...) مطروحـــة انطلاقـــا من النظر الهيجلي الذي ما تزال الماركســـية مأســـورة فيه. تحرير العبد، ذلك هو، في الواقع، شعار الماركســـية. إلا أن الغـــرب كمـــا هو، يجســـد مصيرا ميتافيزقيـــا وتاريخيا ينمو وفقـــا لإرادة قوة جديدة: تعميم التقنية عالميا. وهي إرادة قوة لاغائية لها: لعل الإنسان قد وصل إلى هذه الأرض متأخرا جدا، دائما، وهكذا استعبدته ســـيادة لا سيد لها، وضاع في التيه إلى الأبد. هل الإنسان إذن أخطأ في المسير؟

نحـــن العـــرب أيضا نصـــل متأخرين جـــدا إلى عصر التقنيـــة. كيف نقـــدر أن نأخذ نظامهـــا دون أن نرغب بدورنا في أخذ نصيبنا من مملكة العالم؟ نريد أن نحرر مجتمعاتنا التي يهيمن عليها اللاهوت والتقنية، لكننا لانحس كفايـــة أن فكر الاختلاف الوحشـــي هو وحده يقدر أن يحافظ على حدادالميتافيزيقا (التقنية)، ويبدأ بتدميـــر المعرفة المطلقـــة. نحو هذا الحـــداد ينحدر مع ذلـــك الغرب، بطريقته الخاصـــة. إن أصلية الكائن توجهنا نحو جدارة الموت. إننا نسأل عشاق السيادة، الأقوياء العضلات: كيف يحب الإنسان موته الخاص؟ أي تراجعـــه كأثر تاريخي؟ من أجل أن يحتضن الموت في الاختلاف الذي تصعب معالجته.

5 - في التراجع :

قبل أن نتابع هذا الحديث، نريد أن نعبر عن قلقنا حول منحى كلامك. لأية ميتافيزيقا تشير بمثل هذه الطريقة الحماســـية؟ هل تتكلم (إذا قبلنا أنـــك تتكلم) انطلاقا من تراثك؟ انطلاقا من الفلســـفة اليونانية؟ الألمانية؟ نتســـاءل فـــي الوقت نفســـه إذا لم تكن هذه المســـألة الأولى نفسها مغطاة بمسألة اللغة التي تكتب بها؟

- لاشـــيء من هذا كلـــه، حتى تراثي نفســـه، أعطي لي كما لو أنه نعمة، الا إذا كانت النعمة هي تلك الرعشـــة المغيرة، رعشـــة الالهـــي والموتى. لكـــن، لانبتعد عن اعتراضهـــم الأول، الـــذي أتبنـــاه، إن كنا نســـعى الى الشيء ذاته. على أية ميتافيزيقا نتكلم؟ المسألة تتصل بمجابهة غريبـــة : المجابهة بين الميتافيزيقا الغربية (اليونانيـــة في جوهرها) والميتافيزيقا الاســـلامية، كفكرين جذريين في الكائن. لنســـتعد كلامنا الســـابق على التـــراث. التراث يعبـــر عن عـــودة الموتى الذين يتكلمون. من نبع هذا الكلام، ينبجس الكشـــف عن لغة أعلن أنه لاتمكن محاكاتها (الاعجاز): اللغة العربية. ان اللغة العربية، كمكان ميتافيزيقي بامتياز، تجمع – في فكر المؤمن – بين الأرض والسماء...

- وتفتح له أبواب الجنة...

- لكن المتصوف يفتح عروقه.

- ان وعي المطلق في هـــذه اللغة التي لاتحاكى يرويه مجيء خارق : القرآن.

- نعم، القرآن كصورة للالهي...

- تحجب وجه الله...

- الطريق التي يبدو أنكم تســـلكونها يونانية، جذريا: فكـــر الالهي كحضور للكائن، كحـــدث... أما قيل وأعيد القول، أن الفلسفة العربية يونانية في جوهرها

- نعـــم، وفقا لاتجـــاه فكري معين. أقـــول، مثلا، ان اله أرسطو، داخل في الاسلام، قبل مجيء الاسلام.

- هذه اشارة تفســـر لماذا ابتكر العرب لاهوت ارسطو المشـــهور، مـــن أجـــل أن يلغـــو بمعنى مـــا، الوثنية اليونانيـــة، وينتزعوا من هذا الشـــعب اختلافه الذي يصعب على الوحدانية أن تعالجه.

- كان لهؤلاء العرب موهبة ابتكار حكايات جميلة.

- هل يكون اللاهوت حكاية جميلة؟ قصة من أجل أبناء ضالين؟

- إن الإشارة بذاتها إلى (لاهوت أرسطو، الخيالي) هي، يقينا، حكايـــة ذات دلالة. لكن لاحظوا أن الموقف التالي هو الذي يبدو لي خارقا ومفرطا على الســـواء: الإسلام الذي هو ميتافيزيقا الاله المحجوب (الإســـلام يحجب أيضا وجه النساء، باعتبار أن الحوريات لا تمكن رؤيتهن في الدنيا إلا في الجنة الصوفية). الإسلام، في مواجهة اليونان، فقد النظر، وما نـــزال نرتجف من هذا الفقدان، ونحاول أن ننظر. من؟ أي شـــيء؟ إن عمى الهوية يبلبل خطواتنـــا. لكن لعلنا نســـتمد من هذا العمـــى الذي هو نصيبنـــا، قوتنا من أجل العودة إلـــى ضياء الفكر. لهذا يتوجب علينا أن نحب تراجع العرب التاريخي ونقترب منه. علينا، باختصار، أن نتوجه نحو ليلهم.

- تتحـــدث أحيانا عـــن العرب قائلا : « هـــم ». هل أنت جـــزء من كوكـــب آخر؟ أم أنـــك اصطنعـــت، على غرار

المستشـرقين، نوعـا آخـر مـن العـرب اللامرئيين، الضائعين إلى الأبد في عودة الموتى؟
- وعد للذات : أن تكون بلا حد عربية عن افراط...
- أو نقص.
- نعم.
- هـل قلـت من هنيهـة أن العـرب آخذون فـي تغيير وجههم؟
- بمقـدار ما يقوم وجه الفكـر، المتراجع، في ملاحظة الآخر المبتعد في ذاته : فكر الكائن والصحراء، الهيام الصوفـي و الخنثوية. هذه القضايا (المكبوتة اليوم) فـي الفكر العربـي التقليدي يجـب أن نحتضنها في نقدنا المزدوج.
- لكـن هذه العودة الى الذات يطالب بها التراثيون من كل جانب.
- لقد فقدت التراثوية معنى التراث. فالدعوة السـلفية لتفسـير الأصالة تكشـف عن عقيـدة إصلاحية تدعو للارتيـاب. هذا الهـدف العقائدي يقـوم على تحويل العرب الى شعب من اللاهوتيين السياسيين.
- فـي بلدان يسـيطر عليهـا الفقـر والإذلال، تقومون بدعوة الأشباح. مع من تتحاورون؟
- ندافع عن النقد المزدوج، وعن الاختلاف الذي تصعب معالجته، والذي سنتحدث عنه ان شئتم، بعد قليل.

6 - ثلاثة تحولات :

هكذا يرتسم المغرب، كأفق، للفكر، وفقا لثلاثة خطوط كبرى :
- التراثويـة، نسـمي الميتافيزيقا التـي تحولت إلى لاهوت تراثوية. ويشـير اللاهوت هنا إلى فكر الواحد الأحد، الموجود كوجود أول، كعلة أولى.
- السلفية، نسمي الميتافيزيقا التي تحولت إلى مذهب سلفية. يشير المذهب هنا إلى أخلاق سلوك سياسي، الى تربية اجتماعية.
- العقلانيـة (السياسـة، الثقافويـة، التاريخانيـة، الاجتماعية...) نسـمي الميتافيزيقا التي تحولت الى تقنية، عقلانية. وتشير العقلانية هنا الى تنظيم العالم بارادة قوة جديدة تقوم على الوضعية العلمية.

الميتافيزيقا التي تحولت الى لاهوت ومذهب وتقنية: تمكـن مقاربة هذه التحولات الثلاثـة بالتاريخ وبعلم الاجتماع. هكـذا نرى التمييز عند ايديولوجي مغربي (عبـد الله العروي) بين الشـيخ والليبرالي والتقني. مثـل هذا التمييز مفيد بلا ريب في التحليل النفسـي
- الايديولوجـي، لكنه لايلامس قضيـة العالم العربي إلا مـن بعيد. لماذا؟ ان التمييز الذي أشـرنا اليه هو، فـي منطقه الخاص، تمييز ناقص: أين مكان التراثوي اللامذهبـي، والتراثـوي اللاهوتي بالفعـل؟ ثم ان ما نسـتخدمه على الأخص اليوم ومنـذ أمد، ليس مجرد صورة اختبارية من « ايديولوجية عربية ما» نصفها بأنهـا معاصرة، وان هو بالأحـرى المصير التاريخي للعـرب، وتراجعهـم وانحدارهـم نحـو الغـرب، من حيث ان هذا المصير، وهـذا التراجع، وهذا الانحدار قائمة، منذ فجر الإسـلام. التاريخـي ليس التأريخي، والايديولوجي مؤسـس في الميتافيزيقا، والمعاصر متجه نحو عودة الواحد أو الشيء في ذاته: ان مسألة العرب ما يزال يحجبها ايديولوجيونا الذين تشغلهم كثيرا المشكلات السياسية الراهنة.

ان الميتافيزيقا (الإلهيات) حاضرة كتفكير في الوجود والموجود، كتفكير فـي الجوهر، في الواحد والكثير، منذ بداية الفلسفة في الإسلام (الكندي). هذه الفلسفة - علـى غرار اليونـان - «تعزل» بمعنـى ما، اللاهوت النظري لعلم الكلام الذي كانت مسألته الأساسية تدور حـول حدوث الكلام الالهي أو قدمه. ان انحسـار هذه الفلسـفة (منذ القرن الثالث عشر) أمر لم يدرس. كيف نحيط بمسألته. هنا والآن؟

كانت الفلسـفة العربية تعرف على طريقتها ما نتعلمه الآن فـي الغرب. لقد نسـينا ألفباء مسـألة الموجود والوجود، الهوية والاختلاف، ونتابع الثرثرة بلا حياء حول اسـتعادة الهوية وحول الولادة العربية الثانية. ولادة ثانية لأي شـيء؟ الولادة من جديد في الفكر هي المصير المأثور للأشـباح، للموتـى الذين يكلموننا. نحـن تراثويون بنسـيان التراث، مذهبيون بنسـيان فكر الكائـن، وتقنيون بالعبودية. من دجننا هكذا لكي يصبح مثل هذا النسيان شأنا يتكرر جيلا بعد جيل؟ غير أن النسـيان ليـس العدم، وليس هـروب الزمن، وإنما تمسـك به قـوة أخلاقية فعالـة وطاقة لاهوتية ضاربـة. التراثويـة هي هـذه الفعالية، هـذا الجهد المستبسـل للعقاب والإكراه. لم نقـل ما يكفي عن أن الحلـم العميق للتراتوي هو أن يأخذ مكان الله، أبديا وثابتا. وليس مدهشا أن ينتهي بنفي نفسه في سماء النظر الصافية.

7 - في التاريخ :

كل مجتمـع يعيد كتابة المكان الذي يتأصل فيه ثانية، فيمـا يعيد كتابة تاريخه، وبهذه الحركة يسـقط على الماضي ما يفلت منه في الحاضر. بلى، إن التاريخ هو مسكن الإنسان ومنبت هويته المتعددة، لكن نحو أي

مـكان تأريخي يتجه؟ «لنمارس التاريخوية المعممة» : ذلـك هو شـعار عبـد الله العـروي. لاشـك أن هذا التاريخوي يمتلـك جدارة الإرادة لإعادة التفكير في « الوعي التاريخي «، بالنسبة الى الايديولوجية العربية، وبخاصـة المغربية، انه يلح على معنى الاسـتمرارية التاريخية، وعلى أهميـة المراحل ذات الأمد الطويل، مـن أجـل أن يـرد الوضـع الاسـتعماري و«تخلفنا الثقافي» (هذه عبارة له) إلى مجال تاريخي كلي. إذن، من أجـل أن يدخل في عمل المؤرخيـن العرب ترتيبا نظريـا آخر، ورؤيا أخرى لأنفسـنا. يفضح العروي « اسـتلاب المواطن « بالبحث الذي نشـأ في المرحلة الاسـتعمارية، أو بالتراثوية التي تثبت تاريخ العرب في ماض حنيني. هذه الجهود كلها ضرورية ومفيدة. لكن المسـألة التأريخية (مسـألة الـذروة والتراجع، مسـألة نمـو الكائـن في مصيـر الشـعوب والعالم) قلصت في تاريخانية معممة، لاتهدد الا مأزقه النظري الخاص. لم هذا؟ إن العروي يرد التاريخ الى شـمولية ميتافيزيقية، نسيجها الاستمرارية والعقلانية والميل إلى النظام والإرادة، كما لـو أن «عامل التاريخ» عقل مطلق، قادر ان يسـيطر على المصير. من جهة أخرى، يتيـح العروي، مـن حيث أنه يريد أن يغيـر التاريخ، أساسيا بقانون الاستمرارية، يتيح للحركة الأخرى ان تنسـرب بين الأصابع، حركة الفرق، واللااستمرارية، والفوضى، واللاتماثل. هناك دائما خسـارة لا تعوض في عنف الكائن (التاريخي).

هذا المأزق النظري، المأسـور فـي الميتافيزيقا، هو الذي جعله قريبا من الماركسـية. غير أن الماركسية، في أحد أشكالها الأكثر صرامة ترفض:

- التاريخانية المتعالية (تاريخانية المجتمع الاقطاعي) التي تحددها المطلقات (الله، النبوة، القدر...).

- تاريخانيـة الفكـر الليبرالـي (القرن الثامن عشـر الأوروبـي) التي أوجدت بدائل معلمنة : العقل، الفرد، الحرية...فلقـد حـدث تغيير ايديولوجـي، لكن التربة الميتافيزيقية بقيت هي اياها.

لسـنا ملزمين باتباع المسـيرة ذاتها، بأن نجتاز من جديد المراحل التـي اجتازها الغرب. يجب أن ننطلق رأسـا، من القائـم هنا كمسـألة. ان ألتوسـير، مثلا، يعتبـر التاريـخ، وصراع الطبقـات كقضية بلا باعث ولا غائيـة. لقد غير موقف الماركسـية النظري، دفعة واحـدة، في تجاوزه هذين النوعين مـن التاريخانية، اللذين ذكرناهما. والواقع أن عمل العروي يبقى معلقا بينهما.

ما يلزمنا هو أن نتجاوز من الجوانب جميعا الصورة الضيقة التي نملكها عن أنفسـنا وعـن الآخرين، وأن ندخـل في المعرفة فسـحة ذات محاور اسـتراتيجية متعددة، وأن نفـرغ الكتابة التاريخيـة من المطلقات (اللاهـوت، المركزية اللاهوتيـه...) التي تقيد الزمان والمكان، وتقيد جسم الشعب.

أن نخلخل بنقد يقظ، نظام المعرفة السـائد (من حيث أتـى)، هو أن ندخل النظريـة في الصراع الاجتماعي والسياسـي. غير أن لهذا الصـراع الحاضر لا حاليته المنسـية التي يجب السـير نحوها فـي عنف الكائن التأريخـي، في عالم تقبض عليه أكثر فأكثر إرادة قوة لاتقاوم.

إن ما يهدم تاريخانية العروي هذه هو أمانتها للهوية الوحشية، أي «لمسـألة» ساذجة من مسائل الوجود. ومن هنا يخلـط العروي بين «الآخـر» و «الغير»، و «الآخريـن»، بيـن الانثروبولوجيـة الثقافيـة، وفكر الاختـلاف، بين التاريخـي والتأريخـي. زد على ذلك ان آراءه المختلفـة حـول الوجود العربي تسـقط من تلقائها : فلسـنا بحاجة إلى الإلحاح على هشاشتها. يكتب، مثـلا : «منذ ثلاثة أرباع القـرن، يطرح العرب على أنفسهم سؤالا وحيدا واحدا: من الآخر، ومن أنا؟ (الإيديولوجية العربية، ص 15) كما لو أن هذا السؤال ليس السؤال الجوهري لفكر الوجود، باستمرار. فبأية سـداجة ينسـى العروي مسـألة الوجود والموجود، المؤتلف والمختلف، كما طرحت في الفلسفة اليونانية والفلسفة العربية. ان ايديولوجية العروي منهارة، في أساسها.

8 - في الشعب

من المعروف أن المغرب لم يفد، بالمعنى الحقيقي، من فكر فلسـفي (عظيم)، علمـي أو أدبي. ان ابن خلدون ليس للمغاربة وحدهم : فقد كانت رسالته عربية.

شـارك المغرب، بشـكل هامشـي، في تكوين الثقافة العلمية، مع أنهـا كانت مندمجة في الانتماء المزدوج الاندلسـي- المغربي ولم يطور المغرب ، بلد الفلاحين والمحاربيـن وبنـاة الممالك الكبار، ثقافـة تاريخية. يفسـر الباحثون هذه المسـألة بغيـاب دولة منظمة بيروقراطيا بشـكل قـوي لكن، اذا كانت اسـتمرارية الشعب في لغته (لغاته) فكيف نفهم تاريخ المغرب؟

ما نـزال نعجب، مثلا، من أن البربـر (المغاربة ذوي الأصول القديمـة) رفضوا بعنـاد أن يتبنوا أبجدية وكتابة « التيفيناغ » اصطلاح بسيط لوضع العلامات

يستخدم لمهمات يومية أولية. قد يفسر هذا الرفض للكتابة، من بعض النواحي بالتاريخ وبعلم الاجتماع: تنظيم القبيلة المجزأ، لامركزية السلطة المهيمنة، غياب البيروقراطية القوية، عنف الغزوات الاستعمارية التي حالت دون وحدة البلاد.

بلى، جميع هذه القضايا مفيدة، بالنسبة الى قراءة موضوعية للمغرب. غير أن المسألة البعيدة ما تزال محجوبة: المغرب القديم الذي لا أبجدية له، يدخل في جسم الشعب، في جوف الطغيان التاريخي. وهو دخول مجيد أحيانا : في الأدب العربي (الدنيوي والروحي)، في الوشم والزخرفة، في بهاء الغناء والرقص. ذلك مشهد يكشف عن ديونيزية مغربية تنحدر دفعتها النشوى نحو المحيط.

المغرب البديع هذا قد أخذ في الزوال، تغطي اللامبالاة ذاكرته. اننا، بمعنى ما، نتابع التهديم الذي بدأه الاستعمار وعلم الأجناس. وليكن قولنا مفهوما: نحن لاندعو الى الحنين الساذج للأصل القديم، وإنما ندعو إلى مغرب جذري تخلص من القانون اللاهوتي ومن سلطة العلموية.

ان على المغرب، كأفق للفكر وكينبوع للفن أن يكون في مستوى جذرية الوجود هذه، أي أن عليه أن يتجه نحو الزمن الجمع لمغرب لاينسى، والذي لايمكن أن يحاصره قانون البشر ولا السور الميتافيزيقي.

9 - في الهوية العمياء

التراثوية ليست التراث، التراثوية، وهي، كنسيان، تجعل المذهب بديلا عن المسألة : أولية كائن ثابت وأبدي، وتروم. أن تحافظ على هذه الثبوتية وهذه الأبدية، وتثبتهما الى الأبد في شريعة البشر... وامتلاك الأشياء.

غير أن الإرادة المذهبية لاتقدر أن تتجلى إلا في حقل «واقع» خائب في ذاته، ملائم للوعي البائس، وتريد السلفية أن تتجاوز هذا المأزق. إن إرادتها عقدية : إصلاح انحطاط العالم وفساده. (راجع نصوص علال الفاسي العقدية).

لاتقدر التراثوية ولا السلفية ان تكونا في علو المغرب، كأفق للفكر والفن. ما السبب؟ لأنهما، بضياعهما في العالم المعاصر، لم تعودا قادرتين على الانقلاب ضد سلطانهما الديني واللاهوتي المركزي، ولا أن تقوما بقفزة نظرية، أي أن تتحاورا مع الخارج (الشر) الذي يفسدهما ويدمرهما من الداخل.

تريد العقيدة السلفية أن تؤالف التقنية مع اللاهوت، معتقدة أنها تحقق بهذه المؤالفة المصطنعة اقتصادا مزدوجا :

- **اقتصادا وسيليا :** تصبح التقنية، بحسبه، أداة قابلة للاندماج في مجتمع كالمجتمع المغربي، دون أن تسيء هذه الأداة بشيء الى البنية الاجتماعية-الاقتصادية التي تسند السلفية.
- **اقتصادا غائيا :** ويفترض فيه أن التقنية مفرغة من القيم التي تؤسسه. تصبح التقنية اذن قابلة لأن تروضها وتوجهها الإرادة السلفية وفقا لأهدافها الخاصة.

ان خللا فكريا كهذا يحدد شكلا من الهوية العمياء سائدا بوجه خاص.

10 - في الاختلاف الذي تصعب معالجته

- تتحدث عن التقنية بشكل غامض. يبدو أنك تعتبرها أحيانا لعنة شيطانية.
- ليست التقنية الشر في ذاته، ولا الخير في ذاته. انها المصير الكوني للعلم. وانتشارها لايقاومه أي مجتمع: فهل يمكن ايقاف مصير العالم؟ حيث يقيم الانسان، تكون التقنية مقيمة كأرض ثانية.
- وهذا يعني أنها في كل مكان، أيا كان المجتمع.
- نعم، لنأخذ المغرب، مثلا. اننا نستورد الأشياء ونستورد ما يسمى بنماذج التطور، لهذه النماذج فعالية وقابلية على التكيف عظيمة، قليلا أو كثيرا.
- قد تفيد في القضاء على الفقر. يمكن تحقيق مستوى ما من النمو الاقتصادي بحسب المخططات الدقيقة قليلا أو كثيرا...
- الدقيقة بقدر ما يكون جسم الإنسان نفسه دخيرة عمل يمكن حسابها: نوعية حياته، ونتاجه وموته.
- كيف تصبح هذه الآلات وهذه النماذج المستوردة؟
- تخلق صورة، أو تصورا مزدوجا عن نظامها. هكذا تنتج تكنوقراطيات للسهر على إرادتها. إن فعل التراكم هذا هو، بذاته، غير محدود. فنحن لا نرى نهايته: اننا نستورد مع هذه الآلات وهذه النماذج نوعا من العلاقة بين الإنسان ونفسه، والإنسان والطبيعة، ونوعا من العلاقة بين الإنسان وأشباهه، الإنسان والوجود...
- هل يمكن استيراد مثل هذه العلاقة الوجودية؟
- كنا في صدد الكلام على صورة التقنية.
- ماذا تقصد؟
- حسنا لنتكلم بسرعة على مسألة هيدغر الكبرى عن التقنية، من حيث يمر الغرب، يرسم على طريقه، فكر هيدغر، بين الشرق والغرب، انبثق شعاع من الضوء

لاينسى. ليس مارتن هيدغر، في القرن العشرين، فيلسوفا بين آخرين. انه ذلك الذي يسهر على حداد الفكر الغربي. ومن هنا كانت مسألة التقنية تقلقه وتعذبه.

- هذا العذاب بأي شيء هو عذابنا؟

- كنا نقول إذن، متابعة لمنظومة هيدغر الجنائزية، ان التقنية، « كميتافيزيقا مكتملة»، وكقوة ارادة هي أساس انذار كوني جديد يدعو البشر – أكثر من أي وقت مضى – الى سماع الكائن.

- ومع ذلك ألح هيدغر كثيرا على تدمير العالم، ومصير الإنسان الذي تحول إلى دابة.

- الدلائل التي تؤيد عذابه قائمة. انظروا حولكم. انظروا في داخلكم الشعر نفسه يعتبر اليوم حساب كلمات، واستراتيجية نصية. لنترك الكلام اليوم على « الآلات المتشهية». غير أن فكر هيدغر هو أيضا ثاقب كضوء البلور. تعني هذه الاستعارة، مثلا، أن التقنية ليست الشر (برهان انسانوي ضعيف جدا) وإنما هي مسألة عن معنى الكائن.

- صحيح، اذا قبلنا هذه الآراء. لكن، لنعد الى ما يربطنا بجوهر التقنية. فالتقنية على كل حال، من أصل غربي. انها بالنسبة الينا، إرادة قوة مهيمنة واستعمارية. إنها، بمعنى ما، خاتمة المعرفة المطلقة. هل نقدر أن نحول لصالحنا ارادة القوة الخارقة هذه؟

- لصالحنا؟ نحن؟ من نحن؟ نحن في جوهر التقنية؟ ليس الشرق حركة بسيطة (جدلية، تأملية، ثقافية...) نحو الغرب. ان أحدهما هو بالنسبة الى الآخر البداية والنهاية. ولهذا فان كتابة هيجل عن الشمسين (الشرق كشمس خارجية والغرب كشمس داخلية في الفكر الكوني) انما هي اسيرة الحقل الميتافيزيقي.

- ماذا يعني هذا التشبيه في حديثنا عن التقنية وصورتها، ان كنت ماتزال تتذكر عقدة حوارنا؟

- جوهر التقنية فرد أوحد. وهو، من حيث أنه أوحد فرد، كوني، أيا كانت طريقة انتشاره. وللأوحد تأثيراته الصورية، والانكفائية، والاخفائية، والاختلافية. نسمي هذا المشهد كله صورة التقنية أوظلها.

- يعني؟

- جوهر التقنية مزدوج بالنسبة الى التربة الميتافيزيقية في الاسلام ولغته. قلنا سابقا أن اله أرسطو دخل في الاسلام قبل ظهوره. كذلك يمهد «الاورغانون» لمصير التقنية الكوني. لهذا يجب أن نركز انتباهنا على المواجهة بين هذين النوعين من الميتافيزيقا، الذي يمحو أحدهما الآخر. اننا مأسورون في هذا الفرق، في مبادرة جديدة.

- أهذا هو ما تسميه «الاختلاف الذي تصعب معالجته»؟

- نعم. وهناك فروقات أخرى، انقطاعات أخرى، تثير العنف لدى جميع الأطراف، الهوية العمياء والاختلاف الوحشي من الأدلة البارزة. فباسم وحدة المجموعة العربية نقضي على فلسطين. الاختلاف الذي تصعب معالجته هوكف يد الميتافيزيقا بنقد مزدوج، بكفاح مزدوج، بموت مزدوج.

- بنقد مزدوج؟

- نقد هذين النوعين من الميتافيزيقا، ونقد المواجهة بينهما. الواقع ان هناك خيارا، خيارا وحيدا ممكنا : التأمل في المغرب كما هو، كموقع طوبوغرافي بين الشرق والغرب. ما يزال المغرب، كأفق للفكر، يتعذر على التسمية. ينبغي، من جهة، أن نصغي اليه يرن في لغته (لغاته) الخاصة، ومن جهة ثانية، وحده الخارج الذي أعيد فيه التأمل وازيح عن مركزه، وخرب، وحول عن تحديداته المهيمنة، هو الذي يمكن أن يبعدنا عن الهوية العمياء والاختلاف الوحشي. وحده الخارج الذي أعيد النظر فيه، يقدر أن يمزق حنيننا الى الأب، ويقتلعه من التربة الميتافيزيقية. أو على الأقل يوجهه نحو مثل هذا الاقتلاع. نحو فكر سيد، يتيم في غاية اليتم. ذلك هو المنحدر الآخر من الاختلاف الذي تصعب معالجته، وتلك هي علاقتنا بفكر اختلاف كهذا.

- ماذا يعني اذاك « الموت المزدوج »؟

- أفصح عن ذلك هيراقليطس الالهي بمقتضى صوته الغامض : « خالدون فانون، فانون خالدون، يحيون بموت أولئك، ويموتون بحياة هؤلاء ». ان جدارة الانسان هي أن يستحق موته، بين الموتى، فهل تفهمونني؟